الدرس الثالث عشر: مسائل مهمة (٢/١)

عناصر الدرس:

١: الهجرة

- معنى الهجرة.
- أنواع الهجرة.
- حكم الهجرة.
- مقاصد الهجرة.
- فضل الهجرة

٢: فرض الشرائع بعد تقرير التوحيد.

٣: الاعتصام بالكتاب والسنة

٤: عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين.

٥: كمال دين الإسلام.

٦: وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

٧: البعث بعد الموت.

٨: الحساب والجزاء.

٩: حكم من كذّب بالبعث

قوله: (**وَالهِجْرَةُ: الاِنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ، وَالهِجْرَةُ: فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلَّا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ

حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧- ٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ البَغَوِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا؛ نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ).

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: «لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالمَدِينَةِ أُمِرَ فِيهَا بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ؛ مِثْلِ الزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالحَجِّ والأَذَانِ وَالجِهَادِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ- صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ - وَدِينُهُ بَاقٍ.

وَهَذَا دِينُهُ، لاخَيْرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا عَنْهُ.

وَالخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَ عَنْهُ: الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ.

بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالإِنْسِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وَأَكْمَلَ اللهُ لَهُ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١].

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ [نوح: ١٧- ١٨].

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]).

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد:

فهذا الدرس متضمن لمسائل مهمة من مسائل الاعتقاد وأصول الدين، وقد أجمل الشيخ رحمه الله أغلبها بعبارات موجزة تقريباً لها وتيسيراً على العامة والمبتدئين، وبيّنها بأدلتها بما يكفي الطالب لمعرفة الحق بدليله في هذه المسائل العظيمة.

وهذه المسائل هي من المسائل الكبار في العقيدة ومن أصول الدين وقد سبق تناول بعضها وبقي في بعضها بعض التفصيل.

❐ ١: الهجرة

❐ قوله: **(وَالهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلَامِ، وَالهِجْرَةُ: فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلَامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.**

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ

جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧- ٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ البَغَوِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا؛ نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ).

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: «لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

معنى الهجرة:

- **الهجرة في اللغة** هي الانتقال من بلد إلى بلد، وسمي فاعل ذلك مهاجراً، لأنه قد هجر بلدَه وقومَه، وَرَغِبَ عن جوارهم.

وقد تنوعت عبارات أئمة اللغة في بيان معنى الهجرة، والاطلاع على أقوالهم يفيد طالب العلم، إذ يحصل بمجموع كلامهم فهم المعنى المقصود من أكثر من وجه.

= قال أبو منصور الأزهري: (كلُّ من فارقَ رِباعَه من بدويّ أو حَضَريّ وسكن بلداً آخر فهو مُهاجر، والاسم منه الهجرة).

رِبَاعَه: أي محل إقامته.

= وقال ابن سيده في المحكم: (الهجرة: الخروج من أرض إلى أرض).

= وقال الخليل بن أحمد: (الهَجْرُ والهجران تركُ ما يَلْزَمُك تَعَهُّدُهُ ومنه اشتُقَّتْ هجرةُ المُهاجرينَ لأنَّهم هَجَروا عشائِرَهُمْ فتقطّعوهم في الله قال الشاعر:

وأُكْثِرَ هَجْرَ البيتِ حتَّى كأنّني ... مَلَلْتُ وما بي من مَلالٍ ولا هَجْرِ

فتبيَّن أن الهجرة في اللغة لا بد فيها من مفارقة وانتقال.

فيفارق محل إقامته، وينتقل إلى بلد آخر يقيم فيه، وبذلك يكون مهاجراً.

والهجرة تنقسم إلى قسمين: هجرة معنوية وهجرة حسية.

❖ **فأما الهجرة المعنوية** فهي: هَجْرُ كلِّ ما نهى الله عنه كما في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هَجَرَ ما نهى الله عنه».

وهذه الهجرة المعنوية شأنها عظيم بل هي أصل الهجرة الحسية، كما أن جهاد النفس أصل سائر أنواع الجهاد.

وهي واجبة في هَجْرِ ما نهى الله عنه نهي تحريم، ومستحبة في هجرِ ما نُهي عنه نَهْيَ كراهة دون نهي التحريم.

والمؤمن مأمور بأن يحقق الهجرة المعنوية وذلك بترك جميع ما نهى الله عنه نهي تحريم أو كراهة من قول أو فعل أو اعتقاد.

وهذه الهجرة تقتضي أن ينيب العبدُ المهاجرُ بقلبه إلى الله عز وجل؛ فيهاجر من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن البدعة إلى السنة، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الإساءة إلى الإحسان.

ومن تأمل أحوال هذه الهجرة وجدها تنتظم جميع أعمال العبد وحركاته وسكناته، ومن كان هذا دأبه كان من الأوَّابين المنيبين.

قال ابن القيم رحمه الله في الرسالة التبوكية: (**الهجرة هجرتان:**

الهجرة الأولى: هجرة بالجسم من بلد إلى بلد، وهذه أحكامها معلومة وليس المراد الكلام فيها.

والهجرة الثانية: الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله، وهذه هي المقصودة هنا، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها.

وهي هجرة تتضمن (من) و (إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له، وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾) ا.هـ.

وفي مسند الإمام أحمد والتاريخ الكبير للبخاري وشعب الإيمان للبيهقي أن معاوية بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم قالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تُقُبِّلَتِ التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب؛ فإذا طلعت طُبع على كلّ قلبٍ بما فيه وكُفِيَ الناسُ العمَلَ».

وفي مسند الإمام أحمد وغيره أن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام سأل النبي صلى الله عليه وسلم: (أي الهجرةِ أفضل؟).

قال: «أن تهجر ما كره ربك».

ورواه أبو داوود والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو وعبد الله بن حبشي مع إبهام السائل، ولفظه: قيل: فأي الهجرة أفضل؟

قال: «أن تهجر ما حرَّم الله».

وهذه الهجرة المعنوية يتحدث عنها علماء السلوك والتزكية ويقسّمونها إلى هجرتين:

١: هجرة إلى الله تعالى بالإخلاص ويفيضون في الحديث فيها عن مسائل الإخلاص وتطهير القصد مما ينقض الإخلاص أو ينقصه من الشرك الأكبر والأصغر وإرادة الدنيا بعمل الآخرة وسائر حظوظ النفس المحرمة وحيل الشيطان في صرف العبد عن تحقيق الإخلاص.

٢ : وهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحقيق المتابعة ويفيضون في الحديث فيها عن اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم في العبادات والمعاملات ومعرفة تفاصيل ذلك وعلاماته ومراتبه.

وغاية ما يبلغه العبد من درجات الإحسان إنما يحصل له بتحقيق هاتين الهجرتين.

ومن أحسن ما أُلِّفَ في هذا الباب كتاب ابن القيم رحمه الله الموسوم بطريق الهجرتين وباب السعادتين.

يقصد بالهجرتين: الهجرة إلى الله تعالى، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

ويقصد بالسعادتين: سعادة الدنيا والآخرة.

نسأل الله تعالى أن نكون ممن حقق الهجرتين وكتبت له السعادتان والله الموفق.

وأما الهجرة المرادة هنا فهي التي عرَّفها المؤلف بقوله: **(وَالهِجْرَةُ: الاِنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلَامِ)**

قوله: **(من بلد الشرك)** أي البلد الذي يكون للمشركين فيه سلطان وحكم؛ بحيث يمنعون به بعض المسلمين من إقامة دينهم.

(إلى بلد الإسلام) أي إلى البلد الذي يكون الحكم فيه للمسلمين.

وهذه الهجرة واجبة وجوباً مؤكداً في نصوص الكتاب والسنة، بل من تأمل النصوص وتعرف على مقاصد الهجرة وفضائلها وأحكامها تبيّن له أن للهجرة شأناً عظيماً في الإسلام، وأنها سبب عظيم لرفعة الدين وعزة المسلمين.

وهي واجبة على كل من لم يستطع إظهار شعائر دينه بسبب تسلط الكافرين عليه لينتقل إلى البلاد التي لا سلطان للكفار عليها، فيعبد الله عز وجل ويظهر شعائر دينه.

وهذا يدلك على أهمية سعي المؤمنين في التخلص من تسلط الكافرين والمنافقين، وأنه لا يمكنهم إقامة دينهم على الوجه المرضي ما داموا تحت تسلط الكافرين أعداء الدين، فإن هؤلاء الأعداء مجتهدون في محاربة دين الله عز وجل، ومحاربة عباده المؤمنين لا يألونهم خبالاً، ولا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة، ولا يمكّنونهم من إقامة الدين على الوجه المرضي.

ومن تأمل أحوال المسلمين اليوم ورأى اجتهاد الكفار وتآمرهم على المسلمين وسعيهم بكل سبيل إلى التضييق على المؤمنين وإضعاف قوتهم واجتهادهم وتناذرهم على ألا تقوم لهم قائمة، وتفننهم في أساليب غزوهم فكرياً واقتصادياً وعسكرياً وإعلامياً علم مقدار ما يكنّه أولئك الكفار من العداوة الشديدة للمسلمين.

ولولا أنَّ الله تعالى قد ضمن ألا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق منصورين ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم لاندرست معالم الدين مِن عظم كيدهم ومكرهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾

والمقصود أن الإقامة في سلطان الكفار فيها مفاسد كبيرة، وفتن عظيمة.

وقد شرع الله الهجرة لإخراج المؤمنين من الضيق إلى السعة ومن الذلة إلى العزة ووعدهم النصر كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾

– فالهجرة لها مقاصد عظيمة وحكم جليلة:

منها: أنها سبب لحفظ المؤمنين من الفتنة في الدين.

ومنها: أنها سبب لعزة المؤمنين ورفعتهم ومَنَعَتهم من ظلم الكفار وتسلطهم عليهم في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

ومنها: أن تميّز المسلمين في بلادٍ لا يكون للكفار سلطان عليها سبب لإقامة الجهاد في سبيل الله، ومقاتلة الكفار الذين لا يستجيبون لدعوة الحق ولا يسالمون المسلمين.

ومنها: أنَّ مَن كان يخفي إسلامه خوفاً من تسلط الكفار إذا علم بقيام بلد مسلم بأحكام الجهاد وإيواء المهاجرين ونصرتهم هاجر إليه؛ فيكثر المهاجرون وتكون لهم شوكة يدفعون بها عن أنفسهم ويقاتلون من يستحق القتال.

وقد حقق شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هذه الأمور في دعوته المباركة، وقد أحسن بذكر هذه المسألة هنا في بيان أصول الدين، وهذا يعرّفك بخبرته رحمه الله وحسن إعداده لهذه الرسالة وانتقائه لمباحثها.

وقد تحالَف الشيخ رحمه الله مع أمير الدرعية لإقامة دولة إسلامية لا سلطان للكفار عليها ولا لمن والاهم من المنافقين والطغاة الذين كانوا في ذلك الزمان، واعتنى بتعليم العقيدة الصحيحة ونشر الفقه في الدين، ولا سيما في مسائل التوحيد وأصول الدين، ودعا المسلمين إلى الهجرة إليها وبين أنها واجبة من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام حتى اجتمع له جيش وقوة، وبدأ بدعوة من يليهم من البلدان التي يدين أهلها وحكَّامها بالشرك وإن كان فيهم من لا يقرّ الشرك ولا يقدر على تغييره؛ فدعاهم إلى التوحيد؛ فمن استجاب دخل في دولة التوحيد وأُقِرَّ على ما بيده من الولاية، وكان عوناً للمسلمين ومدداً لهم، ومن أصرَّ على الشرك وأبى الاستجابة لدعوة التوحيد استعانوا بالله على قتاله، وكانوا موفَّقين منصورين في حروبهم على من عاداهم وناوأهم لَمَّا كانت النية خالصة لنصرة دين الله عز وجلّ، وكان الشيخ معهم يعظهم وينصحهم ويحذرهم من أسباب الهزيمة التي عرفها من أدلة الكتاب والسنة حتى أقيمت الدولة وكتب الله لها النصر وتوحّدت له البلاد بعد أن كانت إمارات متفرقة ينتشر فيها الشرك والبدعة والخرافات ويسومها الطغاة سوء العذاب.

وبقيت الدولة في عزٍّ وهيبة حتَّى حصل ما حصل من التغيير بعد وفاة الشيخ رحمه الله بزمن فكانت الهزيمة المؤسفة التي قضت على الدولة السعودية الأولى.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: (فلما حصل بعض التغيير في آخر الزمان بعد وفاة الشيخ محمد بمدة طويلة، ووفاة كثير من أبنائه رحمة الله عليهم وكثير من أنصاره حصل بعض التغيير فجاء الابتلاء وجاء الامتحان بالدولة التركية، والدولة المصرية، مصداق قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾).

وقد وعد الله المهاجرين في سبيله وعداً حسناً وفضلاً عظيماً؛ فمن كتبت له الحياة نال من ثواب الدنيا ما تقرّ به عينه ومن اصطفاه الله فمات أو قتل لقي من إكرام الله تعالى له ما لا يخطر له على بال.

كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)﴾

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾

- ومن فضائلها أنها تهدم ما كان قبلها من الذنوب والمعاصي كما في صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: لَمَّا جعلَ اللهُ الإسلامَ في قلبي أتيتُ النبيّ صلَّى الله عليه وسلم فقلتُ: ابسُطْ يمينكَ فلأُبايعْك، فبسط يمينَه فقبضْتُ يَدِي

- فقال: «ما لكَ يا عمْرُو؟»

- قلتُ: أردتُ أنْ أشْتَرِط.

- قال: «تَشْتَرِط ماذا؟»

- قلت: أنْ يُغْفَرَ لي.

- قال: «أما علمت أنّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله».

- وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)﴾

- ومن فضائلها ما رواه ابن حبان في صحيحه والبزار في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «للمهاجرين منابر من ذهب يجلسون عليها يوم القيامة قد أمنوا من الفزع». والحديث صححه الألباني رحمه الله.

والذي يدرك فضائل الهجرة إنما هو المخلص فيها الذي هاجر لله عز وجل ولم تكن هجرته لأجل الدنيا كما في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت

هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لعظم ثواب هذه الهجرة اكتفي بإعادة ذكرها في جواب الشرط «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»؛ فكأنه قيل: لا تسأل عن ثوابها؛ فثوابها أعظم من يذكر.

وهذا القول له أصل في اللغة فإن الإبهام يأتي في اللغة أحياناً للمبالغة، وهذا كما أُبهم أجر المهاجر، وجعله الله تعالى واجباً عليه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ﴾

فهذا الذي خرج من بيته ولم يقل (من بلده)، وهو عازم على الهجرة؛ فما بالك بمن تتمّ له هجرته وجهاده؟!!.

في الصحيحين من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: (هاجرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله؛ فوقع أجرنا على الله؛ فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد وترك نَمِرَةً؛ فكنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه؛ فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه، وأن نجعل على رجليه شيئاً من الإذخر، وَمِنّا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها).

ونظير هذا قول عتبة بن غزوان رضي الله عنه وكان من المهاجرين الأولين لما ولاه عمر بن الخطاب إمارة البصرة خطب في أهلها خطبة جليلة رواها الإمام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه وغيرهما، قال فيها: (ولقد رأيتُني سابعَ سبعة مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ما لنا طعام إلا وَرَقُ الشجر، حتى قَرِحَتْ أشْدَاقُنَا، والتقطتُ بُرْدةً، فشققتُها بيني وبين سعد بن مالك – يقصد سعد بن أبي وقاص – ، فاتّزَرْتُ بنصفها، واتّزرَ سَعد بنصفها، فما أصبح اليومَ منا أحد إلا أصْبَحَ أميراً على مِصر من الأَمصار، فإني أعوذ باللّه أن أكونَ في نفسي عظيما، وأنا عند الله صغير، وإنّه لم تكن نُبُوّة قَطُّ إلا تَناسَخَت حتى تكونَ عاقِبَتُها مُلْكا، وستَخْبُرون وتُجرِّبون الأمراءَ بعدَنا).

فهؤلاء المهاجرون رضي الله عنهم كانوا في ضيق ومحنة من تسلط الكفار عليهم؛ فلما أمرهم الله بالهجرة استجابوا لله تعالى وهاجروا ابتغاء مرضاته فصدقهم الله وعده فمن مات منهم أو قتل رزقه الله من فضله العظيم ما لا تقوم له الدنيا وأضعافها، ومن بقي منهم بوّأه الله مبوّأً حسناً ورزقه رزقاً كريما في الدنيا وما أعده الله لهم في الآخرة أعظم.

ولك أن تتفكر في نفسك: هل كانت تبلغ أماني من كان مستضعفاً في مكة والمسلمون قليل عددهم ضعيفة عدتهم والمشركون في زهوهم وعتوّهم وطغيانهم يسومون عباد الله المؤمنين سوء العذاب، هل كانت أمانيه تبلغ أن يكون – بعد سنوات قليلة - حاكماً على مصرٍ من الأمصار كانت تحكمه دولة من أعظم دول الأرض في ذلك الوقت؟!!

ولكنهم آمنوا بالله وصدقوا بوعده فأنجز الله لهم ما وعدهم، ومن أوفى بوعده من الله.

والمقصود أن من لا يستطيع إقامة شعائر دينه بسبب تسلط الكافرين ووجد سبيلاً للهجرة فالهجرة عليه واجبة بإجماع العلماء، ومن ترك هذه الهجرة الواجبة وهو قادر عليها فقد عرض نفسه للوعيد الشديد والعذاب الأليم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)﴾

قال ابن كثير رحمه الله: (هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع).

وقال الشنقيطي في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: (قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾.

الظاهر أن معنى الآية: أن الإنسان إذا كان في محل لا يتمكن فيه من إقامة دينه على الوجه المطلوب، فعليه أن يهاجر منه، في مناكب أرض الله الواسعة، حتى يجد محلاً تمكنه فيه إقامة دينه.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾، ولا يخفى أن الترتيب بالفاء في قوله: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ على قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ دليل واضح على ذلك).

وهذه الهجرة باقية إلى قيام الساعة؛ ففي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داوود والنسائي وغيرها من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي من حديث عبد الله بن واقد السعدي رضي الله عنه قال: وفدت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم في وفدٍ كلّنا يطلب حاجة وكنت آخرهم دخولا على رسول الله صلى الله عليه و سلم؛ فقلت: يا رسول الله إني تركت مَنْ خلفي وهم يزعمون أنّ الهجرة قد انقطعت.

قال: «لا تنقطعُ الهجرةُ ما قُوتل الكفار».

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الهجرة باقية ما بقي في الناس كفارٌ يُقاتَلون ولهم بلاد؛ فمن كان في بلادهم من المسلمين فالهجرة غير منقطعة عليه بل هي إما واجبة عليه إذا كان لا يستطيع إقامة شعائر دينه، وإما مستحبة له إذا كان قادراً على الإقامة ما لم تكن إقامته لمصلحة راجحة ويأمن الفتنة على نفسه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الهجرة هجرتان: هجرة الحاضر وهجرة البادي؛ أما البادي فإنه يطيع إذا أُمِرَ ويجيب إذا دُعِي، وأمّا الحاضِرُ، فهو أعظمهما بلية وأفضلهما أجرا». رواه أحمد والنسائي وابن حبان وصححه الألباني.

البادي الذي يقيم في البدو يحل ويرتحل، والحاضر من يسكن في القرى والمدن.

فهجرة البادي أن يطيع إذا أمر ويجيب إذا دعي للجهاد في سبيل الله عز وجل، وأما الحاضر فهو أعظم بلية؛ لأن همة العدو تكون لغزو المدن والقرى فيكون الخطر على ساكنيها أعظم من الخطر على أهل البوادي.

وأما ما في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية».

فالمراد بالهجرة التي انقطعت هنا هي الهجرة إلى المدينة من مكة أو البلاد التي دخلت في دين الله عز وجل في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، فإن العرب لما دخلت في الإسلام أصبحت بلاد العرب بلاد إسلام فلا معنى للهجرة منها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح؛ ولكن جهادٌ ونيةٌ؛ وإذا استنفرتم فانفروا» وقال: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو» وكلاهما حق.

فالأول أراد به الهجرة المعهودة في زمانه، وهي الهجرة إلى المدينة من مكة وغيرها من أرض العرب؛ فإن هذه الهجرة كانت مشروعةً لما كانت مكة وغيرها دار كفرٍ وحربٍ وكان الإيمان بالمدينة؛ فكانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام واجبةً لمن قدر عليها؛ فلما فتحت مكة وصارت دار الإسلام ودخلت العرب في الإسلام صارت هذه الأرض كلها دار الإسلام فقال: «لا هجرة بعد الفتح»).

وفي الصحيحين من حديث عطاء بن أبي رباح قال: زُرْتُ عائشة مع عبيد بن عُمَير الليثي - وهي مجاورة بثَبير - فسألتها عن الهجرة؛ فقالت: (لا هجرة اليوم؛ كان المؤمنون

يفِرّ أحدُهم بدينه إلى الله عز وجل وإلى رسوله، مخافة أَنْ يُفْتَن عنه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، فالمؤمن يَعْبُدُ ربّهُ حيث شاء، ولكن جهاد ونية).

وفي صحيح مسلم من حديث مجاشع بن مسعود السلمي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم أبايعه على الهجرة؛ فقال: «إن الهجرة قد مضت لأهلها، ولكن على الإسلام والجهاد والخير».

وذلك بعد فتح مكة.

وفي صحيح البخاري عن مجاهد بن جبر قال: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: (إني أريد أن أهاجر إلى الشام).

قال: (لا هجرة ولكن جهاد؛ فانطلق فاعرض نفسك فإن وجدت شيئا وإلا رجعت).

فهذه هي الهجرة التي انقطعت.

وأما الهجرة من بلاد الكفار إلى بلاد المسلمين فباقية لا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها.

قال ابن قدامة المقدسي في كتابه المغني: (**الناس في الهجرة على ثلاثة أضربٍ**:

أحدها: من تجب عليه، وهو من يقدر عليها، ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار، فهذا تجب عليه الهجرة؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾. وهذا وعيدٌ شديدٌ يدل على الوجوب.

ولأن القيام بواجب دينه واجبٌ على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ.

الثاني: من لا هجرة عليه.

وهو من يعجز عنها، إما لمرضٍ، أو إكراهٍ على الإقامة، أو ضعفٍ؛ من النساء والولدان وشبههم، فهذا لا هجرة عليه؛ لقول الله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾.

ولا توصف باستحبابٍ؛ لأنها غير مقدورٍ عليها.

والثالث: من تُستحب له، ولا تجب عليه.

وهو من يقدر عليها، لكنه يتمكن من إظهار دينه، وإقامته في دار الكفر، فتستحب له، ليتمكن من جهادهم).

ومن لا يمكنه الانتقال إلى بلاد المسلمين أو كان في الانتقال إليها مزيد أذى عليه بسبب تسلط بعض الظلمة وجب عليه الانتقال إلى بلد يتمكن فيه من إقامة شعائر دينه؛ لأن مقصود الهجرة إقامة الدين.

كما انتقل من انتقل من المؤمنين في الهجرة الأولى من مكة إلى الحبشة لّما كانت تلك البلاد آمنة يحكمها ملك عُرِف من شأنه إقامة العدل وكراهة الظلم، قال محمد بن إسحاق صاحب السيرة: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مَنَعَةٍ من قومه وعمّه لا يصلُ إليه شيءٌ مما يكرَه مما ينال أصحابَه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بأرض الحبشة مَلِكاً لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه».

فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلماً). وهذا إسناد حسن.

ومن كان يجد في بعض بلاد المسلمين من الظلم والتضييق ما يمنعه من إقامة دينه فإنه ينتقل إلى الإقامة في البلاد التي يأمن فيها على دينه ونفسه وأهله، ولو كانت من بلاد الكفار حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

❐ قوله: (فَلَمّا اسْتَقَرّ بِالمَدِينَةِ أُمِرَ فِيهَا بِبَقِيّةِ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ؛ مِثْلِ الزّكَاةِ وَالصّوْمِ وَالحَجِّ والأَذَانِ وَالجِهَادِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ).

أراد الشيخ رحمه الله أن يبين بهذه الجملة أهمية التوحيد وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أكثر دعوته بمكة إلى التوحيد، فمكث فيها ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد قبل أن تفرض كثير من فرائض الإسلام، بل إن الصلاة لم تفرض على هذه الفرض الخمسة إلا بعد البعثة بزمن، وهذا فيه دلالة بيّنة على أهمية التوحيد.

ثم لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بدأ بتأسيس الدولة الإسلامية فكان أول ما شرع فيه بناء المسجد ليكون مجتمعاً للمسلمين تقام فيه الصلاة ويخطب فيه في الجمعة وفي النوائب التي تنوب المسلمين فيدعى (الصلاة جامعة) فيجتمع المسلمون فيخطب فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبين لهم ما يريد بيانه.

وشرعت فرائض الإسلام شيئاً فشيئاً تخفيفاً من الله تعالى ورحمة بعباده، وكان بعض تلك الفرائض مأموراً به قبل الهجرة لكن ليس على التفصيل والمقادير المبينة بعد ذلك

فقد ورد الأمر بإيتاء الزكاة في بعض السور المكية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بالزكاة والعفاف والصلة وأعمال البر والإحسان كما دل على ذلك قول أبي سفيان لما سأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بم يأمركم؟

فقال: (يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف)

قال: (إن يك ما تقول حقاً فإنه نبي). وخبره مخرّج في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فالزكاة المأمور بها كانت على وجه الإجمال، ثم بعد الهجرة فصلت أحكام الزكاة الواجبة وبُيّنَ ما تجب فيه الزكاة وما لا زكاة فيه، والأنصباء والمقادير.

وكذلك الأمر بالعفاف كان مأموراً به على وجه الإجمال ثم بيّن بعد الهجرة الأنكحة المحرمة كالجمع بين الأختين ونكاح نساء الآباء ونكاح المرأة بلا وليّ ونكاح المتعة والشغار وسائر الأنكحة المحرمة.

وكذلك الأذان للصلوات إنما شرع بعد الهجرة وبعد بناء المسجد كما دل على ذلك حديث عبد الله بن عمر وحديث عبد الله بن زيد.

وكذلك الصيام إنما فرض في السنة الثانية للهجرة.

وكذلك الحج فرض في السنة التاسعة وقيل العاشرة للهجرة.

وكذلك القتال لم يؤذن به إلا بعد الهجرة، وبعد أن صار للإسلام حوزة وَمَنَعَة وقوّة.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأمرون بالتوحيد وهو أعظم ما أمر الله به ويأمرون بالعدل والإحسان وأداء الأمانات وأعمال البر ومكارم الأخلاق، وينهون عن الشرك وهو أنكر المنكرات وينهون عن الفساد في الأرض ومساوئ الأخلاق قبل الهجرة وبعدها.

لكن إقامة الحدود والتعزيرات إنما كانت بعد الهجرة بزمن.

❐ قوله: **(أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ- صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ)**.

أي أن النبي صلى الله عليه وسلم بقي في المدينة بعد الهجرة عشر سنين كما دل عليه حديث ابن عباس المتقدم.

وهو في هذه العشر يبين للناس ما نزل إليهم من شرائع دينهم ويجاهد في سبيل الله عز وجل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى توفي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.

قال ابن عبد البر: (لا خلاف أنه ولد يوم الاثنين بمكة في ربيع الأول عام الفيل، وأن يوم الاثنين أول يوم أوحى الله إليه فيه، وأنه قدم المدينة في ربيع الأول، قال ابن إسحاق:

(وهو ابن ثلاث وخمسين سنة)، وأنه توفي يوم الاثنين في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة صلى الله عليه وسلم).

وقال النووي: (واتفقوا انه ولد يوم الإثنين في شهر ربيع الأول، وتوفي يوم الإثنين من شهر ربيع الأول).

وقال السهيلي في الروض الأنف وهو من أجلّ كتب السيرة: (واتفقوا أنه توفي صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين إلا شيئًا ذكره ابن قتيبة في المعارف (الأربعاء).

قالوا كلهم: (وفي ربيعٍ الأول) غير أنهم قالوا أو قال أكثرهم: (في الثاني عشر من ربيعٍ) ولا يصحُّ أن يكون توفي صلى الله عليه وسلم إلا في الثاني من الشهر أو الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر لإجماع المسلمين على أن وقفة عرفة في حجة الوداع كانت يوم الجمعة وهو التاسع من ذي الحجة فدخل ذو الحجة يوم الخميس؛ فكان المحرم إما الجمعة وإما السبت:

- فإن كان الجمعة فقد كان صفرٌ إما السبت وإما الأحد.
- فإن كان السبت فقد كان ربيعٌ الأحد أو الاثنين.

وكيفما دارت الحال على هذا الحساب فلم يكن الثاني عشر من ربيعٍ يوم الاثنين بوجه ولا الأربعاء أيضًا كما قال القتبي وذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنفٍ أنه توفي في الثاني من ربيعٍ الأول وهذا القول وإن كان خلاف أهل الجمهور فإنه لا يبعد إن كانت الثلاثة الأشهر التي قبله كلها من تسعةٍ وعشرين فتدبره فإنه صحيحٌ ولم أر أحدًا تفطن له وقد رأيت للخوارزمي أنه توفي عليه السلام في أول يومٍ من ربيعٍ الأول وهذا أقرب في القياس بما ذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنفٍ).

قلت: اقتراض أن الأشهر الثلاثة كلها من تسعة وعشرين بعيد، والأقرب أنه يوم الإثنين الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول فإن التصحيف من الثاني والعشرين إلى الثاني عشر وارد، وذلك أنه بناء على المعهود من الحساب إما أن يكون شهر صفر ثلاثين يوماً فيكون يوم الإثنين هو تمام الثلاثين من تلك السنة، وإما أن يكون تسعة وعشرين يوماً، ويكون

يوم الإثنين غرة شهر ربيع الأول، ويكون الثاني والعشرين موافقاً ليوم الإثنين، والله تعالى أعلم.

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وعمره ثلاث وستون.

❐ قوله: (وَدِينُهُ بَاقٍ).

أي أن دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم باق إلى أن تقوم الساعة؛ ومن أدلة ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

فضمن الله تعالى حفظ كتابه الكريم نصّاً وبياناً، فلذلك لا يزال هذا القرآن الكريم محفوظاً ولا يزال ما يلزم لبيانه محفوظاً بحفظ الله تعالى لكتابه.

ويدل لذلك أيضاً ما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس» هذا لفظ حديث معاوية بن أبي سفيان في صحيح مسلم.

وقد روي هذا الحديث بألفاظ مقاربة في الصحيحين والمسند وغيرها من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: منهم جابر بن عبد الله، والمغيرة بن شعبة، وثوبان بن بجدد، وقرة بن إياس، وسلمة بن نفيل، وزيد بن أرقم، وعمران بن حصين، وأبو بكرة الثقفي، وأبو أمامة الباهلي، وأبو هريرة، وعمر بن الخطاب وغيرهم.

فهو من الأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا أصل مهم من أصول الدين وهو اعتقاد كمال الدين وحفظه إلى أن تقوم الساعة، وبهذا الأصل يجاب عن شبهات كثيرة يثيرها بعض أهل البدع والزنادقة والملحدين.

قال البخاري رحمه الله في صحيحه: (باب قول النبي صلى الله عليه و سلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» وهم أهل العلم). وهذا تفسير من البخاري رحمه الله.

وقال علي بن المديني: (هم أصحاب الحديث).

والظهور يتناول أهل العلم والجهاد كما صُرِّحَ به في بعض الروايات كما في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة».

وفي حديث أبي هريرة: «لا تزال طائفة من أمتي قوّامة على أمرِ الله لا يضرّها من خالفها تقاتلُ أعداءَ الله كلَّما ذهبت حربٌ نَشَبَتْ حَرْبُ قومٍ آخرين حتى تأتيهم الساعة».

وتفسير البخاري رحمه الله صحيح لأنه لا يكون الجهاد إلا على دعوة، ولا تكون الدعوة إلا على علم، فعُلِمَ بذلك أن ظهور العلم أصل ظهور الجهاد.

ولذلك كانت الدعوات الإصلاحية مبناها على العلم أولاً.

⇦ وهذه الأحاديث فيها ضمانات عظيمة وإشارات جليلة:

– **فمنها** أن الله تعالى قد تكفل بحفظ دينه وأوليائه.

– **ومنها** أن أهل الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

– **ومنها** أنهم يقاتلون على الحق؛ فمعهم سلاح العلم الذي يُعرف به الحق، ومعهم ما يمكّنهم من القتال الذي ينصرون به على أعدائهم.

- **ومن الإشارات** في هذه الأحاديث أنه يقع لمن قام بهذه الأمور من الدعوة والجهاد خذلان شديد ومخالفة يُبتلَون بها لكنّ ذلك لا يضرهم.

فالخذلان يكون ممن يُتوقع منه النصر والمؤازرة، والمخالفة قد تكون منهم وقد تكون ممن يبدي العداوة والمناوأة.

- **ومما دلّ عليه مفهوم هذه الأحاديث** أن هؤلاء الخاذلين والمخالفين غير منصورين، وإن اغتروا ببعض وسائل العلو في الأرض؛ فإنما هو متاع إلى حين ثم تكون عاقبتهم سيئة.

⇦ فمن فقه هذه الأحاديث:

– **أيقن** أن الله تعالى ناصر دينه ولو كره الكافرون، وأن السعيد الموفَّق من جعله الله من أنصار دينه.

– **وأيقن** أن عليه أن يعرف الحق بدليله وأن يكون قوّاماً بأمر الله عز وجل غير عابئ بمن يخذله أو يخالفه ممن أركسهم الله بما كسبوا من المنافقين والكافرين والعصاة المفتونين.

– **وأيقن** أن خذلانهم ومخالفتهم لا تضره بإذن الله.

– **وأيقن** أن فتنة هؤلاء الخاذلين والمخالفين إنما كانت بسبب مخالفتهم لهدى الله عز وجل وإعراضهم عن طلب الهدى واتباعهم الظنّ وما تهوى الأنفس؛ فيشتد خوفه من الوقوع فيما وقعوا فيه.

فيدعوه ذلك إلى الاعتصام بالله عز وجل والرضى به والثقة به جل وعلا ﴿وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا﴾

ويدعوه ذلك إلى أن يكون أكبر همّه أن يكون من الذين يعلمون الحق ويعملون به.

وقد ضمن الله تعالى لمن اعتصم به أن يهديه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾

ثلاث بشارات عظيمة كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ فكأن الرحمة والفضل يحيطان بهم من جميع جوانبهم يتقلبون فيهما كيف يشاؤون.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهذه هداية خاصة تقربهم إلى الله تعالى وتدنيهم منه وتعرّفهم بما يحبه الله عز وجل ويرضاه وتعرّفهم بما لم يكونوا ليهتدوا إلى معرفته لولا فضل الله عز وجل من أسباب رحمته وتوفيقه وفضله العظيم في الدنيا والآخرة.

والاعتصام بالشيء اتخاذه عاصماً ومانعاً مما يخشى ضرره، وقد أمر الله تعالى بالاعتصام به، وفي ضمن ذلك وَعْدُه لمن اعتصم به أن يعصِمَه مما يخاف ضرره.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

فالاعتصام بالله يكون باتباع هدى الله عز وجل، في ما بينه في كتابه الكريم وفي ما بيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الضرر الذي يخشى في الدنيا والآخرة قد بيّن الله تعالى

في كتابه وفي سنة نبيه أسباب العصمة منه ؛ فمن فعل ما أُمر به وانتهى عما نُهِيَ عنه فقد أخذ بأسباب العصمة، ومن أعرض عن الكتاب والسنة أو وقع في مخالفة الأمر وارتكاب النهي لم يكن معتصماً.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه في خطبة الوداع: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني ؛ فما أنتم قائلون؟»

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

وقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات.

وفي مستدرك الحاكم وسنن البيهقي وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله و سنتي و لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض». صححه الألباني.

والاعتصام بالكتاب والسنة أصل عظيم من أصول أهل السنة والجماعة، وتنبني عليه مسائل كثيرة من مسائل الاعتقاد، وقد ضلّت طوائف من أهل البدع بسبب ضعف اعتصامهم بالكتاب والسنة، بل من الطوائف من قدمت عقولها وأراءها على الكتاب والسنة، ومنها من قدمت أهواءها وأقوال معظميها على صريح دلالة الكتاب والسنة، ومنهم من وقع بسبب ذلك في فتنة التأويل المذموم، ومنهم من وقع في فتنة التفويض.

ومنهم من وقع في فتن أخرى.

ولا عصمة لأحد في اعتقاده إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة ؛ فالمعتصم مهتدي، والمفرّط في الاعتصام عرضة للضلالة، والعياذ بالله.

وأمر الاعتصام بالكتاب والسنة ميسّر ليس فيه عنت ولا مشقة، وما جعل الله علينا في الدين من حرج.

❐ قوله: (وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلاَّ دَلّ الأُمّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرّ إِلاَّ حَذّرَهَا عَنْهُ).

الإشارة إلى دين الإسلام الذي بيّن في هذه الرسالة معناه وأصوله.

❐ قوله: (لا خَيْرَ إِلاَّ دَلّ الأُمّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرّ إِلاَّ حَذّرَهَا عَنْهُ)

الخير هو ما ينفع الإنسان في دينه أو دنياه.

والشر هو ما يضره في دينه أو دنياه.

فكل ما فيه مصلحة ومنفعة للمؤمن في دينه ودنياه فهو خير.

وكل ما فيه مضرّة ومفسدة فهو شرٌّ.

❐ وقوله: (لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه)

هذا يدل عليه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم».

وهذا الخير إمّا أن يكون مدلولاً عليه بعينه أو بوصفه

وكذلك الشر إما أن يكون منهياً عنه بعينه أو بوصفه

فالمأمور به بعينه أمرُهُ بيّن ظاهر لدلالة النصِّ عليه، وأما المأمور به بوصفه فهو مندرج تحت الأدلة العامة والقواعد الكلية للشريعة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾

والخير لا يخرج عن وصف العدل والإحسان فكل خير فهو مأمور به أمر تكليف بالوجوب أو أمر استحباب أو أمر إباحة.

وما خرج عن هذا الوصف فهو شرٌّ منهي عنه.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو فعلت كذا وكذا ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل». وقد تقدم شرح الحديث.

❐ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك» عامّ في كل ما ينفع المؤمن في دينه ودنياه؛ وما ينفع فهو خير؛ فدلّ ذلك على أن كلّ خير فقد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم.

ودل مفهومه على أن كل ما يضرّ فهو منهيٌّ عنه كما صرح به في الحديث الجامع: «لا ضرر ولا ضرار» رواه الإمام أحمد وبعض أصحاب السنن من طرق يقوي بعضها وبعضاً فروي من حديث أبي سعيد الخدري وعبادة بن الصامت وابن عباس وأبي هريرة، ولا تخلو كل طريق من ضعف، وقد صححه جماعة من أهل العلم بمجموع طرقه.

❐ قوله: **(وَالخَيْرُ الَّذِي دَلّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشّرُّ الَّذِي حَذّرَ عَنْهُ: الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأبَاهُ)**

التوحيد رأس كل خير، قدّمه المؤلِّف لأهميته ثم عطف عليه جميع ما يحبه الله ويرضاه؛ فيكون من باب عطف العام على الخاص.

والله تعالى لا يحب إلا ما هو خير، وكل ما أمر الله به فقد أحبّه، وكل ما أحبه الله فهو خير.

وكل ما حذّر الله منه فإن الله يبغضه، وكل ما أبغضه الله فهو شرٌّ.

والشرك هو أعظم ما حذّر الله منه ونهى عنه، فهو رأس الشر، وأكبر الشر، والعياذ بالله من الشرك، فإنه أقبح الذنوب، وأعظم الأوزار، وعقاب فاعله شر العقاب.

❐ قوله: (**بَعَثَهُ اللهُ إِلى النّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالإِنْسِ.**

وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]).

عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين الجن والإنس أصل مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة.

والأدلة على ذلك كثيرة معلومة منها:

- قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾
- وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
- وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾
- وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾
- وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي:
  - نصرت بالرعب مسيرة شهرٍ.
  - وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل.
  - وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي.
  - وأعطيت الشفاعة.
  - وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

- وفي الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بستٍّ:
  - أعطيتُ جوامع الكلم.

- ونُصِرْتُ بالرُّعب.
- وأُحِلَّتْ لي الغنائم.
- وجُعِلَتْ لي الأرض طهوراً ومسجداً.
- وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافةً.
- وخُتِمَ بي النبيون».

• وفي مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار».

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾

قال: (وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صَلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث).

ثم ذكر أدلة في عموم رسالته صلى الله عليه وسلم تقدم ذكر بعضها.

وهذا الأصل من أنكره فهو كافر لجحده معلوماً من الدين بالضرورة ولتكذيبه ما أخبر الله تعالى به وأخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم.

والمخالفون في هذا الأصل على درجتين:

الأولى: الذين ينكرون نبوة النبي صلى الله عليه وسلم أصلاً.

وهؤلاء كمشركي العرب وطوائف من اليهود والنصارى وغيرهم.

الدرجة الثانية: الذين يقرون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم لكنهم يزعمون أنها للعرب خاصة، وأشهر من عرف عنه هذا القول طائفتان:

– **فأما الطائفة الأولى**: فطائفة يقال لها العيسوية من يهود أصبهان، نسبة إلى زعيم لهم يقال له أبو عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني.

قال ابن حجر في الفتح: (العيسوية طائفة من اليهود حدثت في آخر دولة بني أمية فاعترفوا بأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه و سلم لكن إلى العرب فقط وهم منسوبون إلى رجل يقال له أبو عيسى أحدث لهم ذلك).

وقد نقل ابن حجر عن بعض فقهاء الشافعية أنهم قالوا: (من نطق بالتشهد في الأذان حُكِمَ بإسلامه إلا إذا كان عيسويا).

وهذا القول نقله الكيا الهراسي عن فقهاء الحنفية.

وقد ذكر الشهرستاني في الملل والنحل أن هذه الطائفة لما صارت لها شوكة بأصبهان خرجوا على أبي جعفر المنصور وأحدثوا فتنة وقتلوا خلقاً من المسلمين.

ومما ينبغي التنبه له أن لقب العيسوية يطلق على طوائف أخرى أيضاً.

– **الطائفة الأخرى**: طائفة من النصارى أقروا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم لكنهم زعموا أنه رسول إلى العرب فقط، وأنه لا يلزمهم اتباعه.

والرد على هؤلاء بيّن ظاهر؛ فإن إقرارهم بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم يلزمهم بتصديقه فيما يخبر به، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله إلى الناس جميعاً وأنه لا يسمع به أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن به إلا كان من أصحاب النار.

فإن صدقوه فيما أخبر به لزمهم الإقرار بعموم رسالته، وإن كذّبوه أو خطّؤوه كانوا كفاراً لتكذيبهم إياه.

ومما ينبغي لطالب العلم في هذا العصر أن يتفطن له الدعاوى الكفرية الباطلة التي يروّج لها بعض المنتسبين للإسلام من تصحيح مذهب اليهود والنصارى وأن أصحاب الأديان السماوية غير كفار لأنهم يتبعون رسلاً أرسلهم الله إليهم.

وهذا القول كفر ظاهر فكل من لم يشهد للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة ولم يصدقه فيما يخبر به فهو كافر.

فإقرارهم برسالة النبي صلى الله عليه وسلم تلزمهم تصديقه في جميع ما يخبر به، وقد تقدم ذكر الأدلة على عموم رسالته فمن أنكرها فقد كفر.

❐ قوله: (وَأَكْمَلَ اللهُ لَهُ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]).

اعتقاد كمال دين الإسلام أصل مهم من أصول أهل السنة والجماعة، وبه أجاب جماعة من الأئمة في مناظراتهم لأهل البدع والأهواء؛ فإن المبتدع إنما حمله على بدعته ما قام في نفسه من عدم كمال الدين.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾

﴿الْيَوْمَ﴾ المقصود به يوم عرفة من حجة الوداع، وهو اليوم الذي أنزلت فيه هذه الآية.

كما في الصحيحين من حديث طارق بن شهاب قال: جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرءونها لو علينا - معشر اليهود - نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال: أي آية؟

قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾

فقال عمر: (قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قائم بعرفة يوم جمعة).

فقد جمع الله لنزول هذه الآية خير الأيام من أيام الأسبوع، وخير الأيام من أيام السنة، وخير الأركان من أركان الحج، وأفضل جمع اجتمع من خير أمة أخرجت للناس، فامتنّ الله تعالى على المسلمين في ذلك اليوم بإكمال الدين وإتمام النعمة ورِضَاه لنا بدين الإسلام

ديناً، والمقصود بالإسلام هنا الدين الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم بإجماع العلماء.

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ هذه أكبر نعم الله عز وجل على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلْف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ صِدْقًا وَعَدْلا﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي.

فلما أكمل الدين لهم تمت النعمة عليهم؛ ولهذا قال ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضيه الله وأحبه وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه).

- قوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ النعمة المرادة هنا هي النعمة الخاصة التي اختص الله بها أولياءه وهي نعمة الهداية.

فإن إنعام الله تعالى على عباده على نوعين:

النوع الأول: إنعام عام، وهو إنعام فتنة وابتلاء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ الآيتين.

وقال: ﴿فَإِذَا مَسّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمّ إِذَا خَوّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنّا قَالَ إِنّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وهذا الإنعام عام للمؤمنين والكافرين كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

وهذا الإنعام حجة على العباد ودليل على المنعم جل وعلا ليخلصوا له العبادة ويشكروه على نِعَمِه كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

وقال: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

النوع الثاني: الإنعام الخاص، وهو إنعام منّة واجتباء، وهو الإنعام بالهداية إلى ما يحبه الله عز وجل ويرضاه من الأقوال والأعمال، وما يمنُّ به على بعض عباده من أسباب فضله ورحمته وبركاته.

وهذا الإنعام هو المقصود هنا، وفي قول الله تعالى في إرشاده لعباده في أم القرآن: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)﴾ وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

فقوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أي نعمة بيان الهدى إلى ما يحبه الله عز وجل ويرضاه؛ فهي نعمة تامة غير ناقصة، شاملة جميع ما يحتاجه المسلمون أفراداً وجماعات في أي شأن من شؤونهم، كما قال الله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ حذف متعلق أفعل التفضيل لإرادة العموم؛ أي أقوم في كل شيء يُحتاج إليه من أبواب الدين في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك والدعوة والسياسة وغيرها مما تتعلق به حاجة الفرد أو الأمة إلى الهداية إلى ما ينفع ويقرب إلى الله عز وجل، وتتحقق به النجاة والسلامة مما يخشى ضرره كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ

(١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقال: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقال: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

فدلت الآية على كمال الدين وتمام النعمة الخاصة التي اختص الله بها هذه الأمة، فمَنْ قَبِلَها وشكرها كان موعوداً بالخير والفضل العظيم في الدنيا والآخرة، ومن بدّلها وكفرها كان متوعداً بالعذاب الشديد، والخسران المبين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾

فبيّن الله تعالى في هذه الآيات **غاية الكفر وغاية الشكر**

❖ **فغاية الكفر**: هو تبديل النعمة بالكفر والتعرض لسخط الله عز وجل ومقته بالشرك به جل وعلا.

وأعظم هذه النعم نعمة الإسلام فمن رفضه فقد بدّل النعمة أقبح تبديل، وسمِّي ذلك تبديلاً للنعمة لأن من فعل أسباب سلب النعمة وإحلال النقمة محلها مبدِّل للنعمة

كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

فمن كان على فطرة الإسلام إذا فعل ما يستحق به سلب هذا النعمة فهو مبدّل لهذه النعمة، ومن أتاه البيان إلى ما يحبه الله ويرضاه وما يفوز به العبد في دنياه وأخراه ثم رفضه فهو مبدل للنعمة.

فإنه لما جاءته نعمة الهداية والبيان فردها وزاغ قلبه عنها قصداً وعمداً أزاغ الله قلبه جزاء وفاقاً ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

ومن كان على دين الإسلام ثم ارتد عنه فهو مبدّل للنعمة أقبح تبديل.

فهذا بيان أنواع غاية الكفر، وهو الكفر الذي يخرج به من الملة ويستحق به صاحبه الخلود في النار والعياذ بالله، وهو الذي وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ الآية

❖ **وأما غاية الشكر**: فما أرشد الله تعالى إليه من إقامة الصلاة والإنفاق في سبيله سراً وجهراً خوفاً وطمعاً وهذا يستلزم تحقيق الإخلاص، ومن فعله فهو من أهل الإحسان في الإسلام.

وبين هاتين المرتبتين - غاية الشكر وغاية الكفر - درجات كثيرة ومنازل للناس يتفاوتون فيها كما سبق تقرير نظائره في مسائل كثيرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المؤمنون من حمده جل وعلا، ولما يقوله الكافرون من نسبة النعمة إلى غيره ظلماً وعلواً.

﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبهم وما تعمله جوارحهم من الشكر أو الكفر.

فتبيّن بهذا التقرير وبما تقدم من الأدلة أن الناس يتفاضلون في نصيبهم من هذه النعمة الخاصة على تفاضلهم في طاعة الله والرسول.

وتبيّن أن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله هي الشكر الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه.

وتبيّن أن كمال الدين لا يقتضي كمال جميع المنتسبين إليه، وذلك لتفاوتهم في الطاعة؛ فمن أتم الطاعة فقد استكمل دينه، ومن نقص نقص من دينه بقدره.

قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾

- يدل بمنطوقه على أن ما رضيه الله تعالى لنا فهو خير لنا وأصلح وأقوم، لأنه رضا عن علم وحكمة ورحمة؛ فدين الإسلام خير الأديان وأصلحها وأفضلها لنا، وهو دين قد رضيه الله، والله تعالى لا يرضى بما فيه شرٌ ومفسدة وظلم.

- ويدل بمفهومه على أن غير دين الإسلام لا يرضاه الله لنا.

فكل دين غير دين الإسلام فالله تعالى لا يرضاه، وما لا يرضاه الله فهو غير مقبول ولا نافع لمن اتبعه.

وكمال دين الإسلام يستلزم اعتقاد كمال بيان النبي صلى الله عليه وسلم لأمور الدين، وأن بيانه لأمور الدين أتم البيان وأحسنه.

وهذا أصل مهم يرد به على أهل البدع والأهواء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فلم يترك صلى الله عليه وسلم شيئا من أمور الدين وقواعده وأصوله وشرائعه وفصوله إلا بيّنه وبلّغه على كماله وتمامه ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه، إذ لا خلاف بين فرق الأمة أنّ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال).

وقال أيضاً: (ومما جاء به الرسول: إخباره بأنه تعالى قد أكمل الدين بقوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾.

ومما جاء به الرسول: أمر الله له بالبلاغ المبين كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

ومعلومٌ أنه قد بلّغ الرسالة كما أُمِر، ولم يكتم منها شيئًا؛ فإنّ كتمان ما أنزله الله إليه يناقض موجب الرسالة؛ كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة.

ومن المعلوم من دين المسلمين أنه معصومٌ من الكتمان لشيء من الرسالة كما أنه معصومٌ من الكذب فيها.

والأمة تشهد له بأنه بلّغ الرسالة كما أمره الله وبين ما أنزل إليه من ربه، وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين؛ وإنما كَمُلَ بما بَلّغه؛ إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه؛ فعُلِمَ أنه بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده كما قال صلى الله عليه وسلم: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ».

وقال: «ما تركت من شيءٍ يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، وما تركت من شيءٍ يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به».

وقال أبو ذر: (لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائرٌ يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا)).

❖❖ وأنا أحبُّ أن أنبه طلاب العلم إلى أن هذه الأمور وإن كانت من أوضح الواضحات في دين الإسلام إلا أن تقريرها مهم جداً لطلاب العلم، ومن أحسن معرفة هذا الأصل والاستدلال له رد جميع البدع بإذن الله جل وعلا، وقد كان كثير من أئمة أهل السنة والجماعة في مناظراتهم لأهل البدع والأهواء يفحمونهم بهذا الأصل؛ لأنهم إن اعتقدوا كمال الدين خُصِموا، وإن اعتقدوا نقصانَه كفروا.

وقد كان من أعظم ما ذكر من الأسباب في رفع محنة القول بخلق القرآن في زمان الخليفة العباسي الواثق بالله مناظرة جرت على هذا الأصل العظيم بين شيخ من أهل السنة يقال له أبو عبد الرحمن الأذرمي، وشيخ المعتزلة أحمد بن أبي دؤاد الذي دعا خلفاء بني العباس إلى القول بخلق القرآن وإلزام العلماء والناس بالقول به.

وهذه الحكاية ذكرها جماعة من أهل العلم منهم الآجري في كتاب الشريعة والخطيب البغدادي وابن قدامة في اللمعة وغيرهم، وقد جرت هذه المناظرة في مجلس الخليفة الواثق بالله.

وأجتزئ منها هذا القَدْرَ وهو مما ذكره الآجري في كتاب الشريعة:

قال: فقال الشيخ مخاطباً أحمد بن أبي دؤاد عن مقالته المبتدعة.

قال: أخبرني يا أحمد عن مقالتك هذه، أواجبة داخلة في عقد الدين، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه ما قلت؟

قال: نعم

قال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله تعالى إلى عباده، هل سَتَر رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا مما أمر الله تعالى به في دينه؟

قال: لا.

قال الشيخ: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة إلى مقالتك هذه؟

فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: تكلم فسكت.

فالتفت الشيخ إلى الواثق؛ فقال: يا أمير المؤمنين، واحدة.

فقال الواثق: واحدة.

فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن الله تعالى حين أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾

أكان الله تعالى الصادق في إكمال دينه، أم أنت الصادق في نقصانه، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه بمقالتك هذه؟

فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: أجب يا أحمد، فلم يجبه.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، اثنتان فقال الواثق: اثنتان).

إلى آخر قصة المناظرة وهي طويلة.

لكن أردت نقل هذا المقدار منها ليتبيَّن طالب العلم أهمية هذا الأصل، وهو اعتقاد كمال دين الإسلام.

وأنه أصل مهم من أصول الدين يردُّ به على أصحاب البدع والأهواء وكلِّ من يطعن في دين الإسلام أو شيء من أحكامه وحدوده أو ادعى عدم مناسبته لعصر من العصور أو لبلد من البلدان.

والمخالفون في هذا الأصل على درجتين:

الدرجة الأولى: الذين يعتقدون عدم كمال الدين، وهؤلاء كفار لتكذيبهم خبر الله عز وجل وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم.

الدرجة الثانية: الذين يعتقدون كمال الدين لكنهم يخالفون ما يقتضيه كمال الدين من تجريد المتابعة؛ فيحدثون في أمور الدين ما لم يأذن به الله لشُبهٍ عرضت لهم بسبب ضعف فقههم في الدين وجرأتهم على القول في الدين بلا علم، وهؤلاء هم أهل البدع والأهواء وهم مذمومون على هذه المخالفة متعرضون لخطر عظيم بسبب بدعهم.

وأما تكفيرهم في كثير من المسائل فيمنع منه ما عرض لهم من الشُّبَّه، وإلا لو صرحوا بأن الدين غير كامل لكانوا كفاراً بهذا الاعتقاد.

قال الشاطبي في الاعتصام: (الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان؛ لأن الله تعالى قال فيها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾.

وفي حديث العرباض بن سارية: (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها الأعين ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا؟ قال: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الراشدين من بعدي...» الحديث.

وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا، وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة.

فإذا كان كذلك، فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وإنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها، لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتمامها من كل وجهٍ لم يبتدع ولا استدرك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكا يقول: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً».

❐ قوله: (وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١]).

موت النبي صلى الله عليه وسلم قد حصل في السنة الحادية عشرة من الهجرة في شهر ربيع الأول، وهو أمر مجمع عليه.

وموته صلى الله عليه وسلم من علامات الساعة كما في الصحيحين من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قُبّةٍ من أَدَمٍ فقال: «اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتانٌ يأخذ بكم كقُعَاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يُعطَى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنةٌ لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنةٌ تكون بينكم وبين بنى الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً».

وهذه الآية من الآيات التي تلاها أبو بكر رضي الله في خطبته لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلف الناس في هذا الأمر الجلل كما في صحيح البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسُّنْح - يعني بالعالية - فقام عمر يقول: (والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم)

قالت: وقال عمر: ما كان يقع في نفسي إلا ذاك – (وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم)

فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقَبّلَه.

قال: (بأبي أنت طِبْتَ حيّاً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقنك الله الموتتين أبداً).

ثم خرج فقال: (أيها الحالف على رسلك)

فلما تكلم أبو بكر جلس عمر.

فحمد اللهَ أبو بكر وأثنى عليه وقال: (ألا من كان يعبد محمداً؛ فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد اللهَ فإنّ اللهَ حيٌّ لا يموت)، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَا

مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

قال: فنشج الناس يبكون.

وفي مصنف بن أبي شيبة أن عبد الله بن عمر قال: (فو الله الذي نفسي بيده لكأنما كانت على وجوهنا أغطية فكشفت).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله جل وعلا أنزل هذه الآية إلا حين تلاها أبو بكر؛ فتلقاها منه الناس كلهم؛ فلم تسمع بشرا إلا يتلوها).

وفي صحيح البخاري أيضاً: قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قال: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي وأهويت إلى الأرض وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد مات)

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي ستموت، والتعبير عن ذلك بصيغة الخبر المفرد لبيان تحتم وقوعه.

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾

أي: سيردها.

﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي جميع العباد. كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

الخصومة شاملة لجميع ما يختصم فيه من أمور الدين والدنيا، كاختصام المؤمنين والكافرين، واختصام المظلومين والظالمين، واختصام الرعية والرعاة، وغيرهم.

قال ابن كثير رحمه الله: (ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم في الدار الآخرة- فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة).

ومسألة موت النبي صلى الله عليه وسلم يخالف فيها بعض المتصوفة الذين يلبسون على بعض الجهلة؛ فيعظمون أنفسهم ويزعمون أنهم أولياء وأنهم يلتقون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويتحدثون معه، ويسمون ذلك اللقاء بالحضرة النبوية، ولهم في ذلك أساطير وأباطيل يغرّون بها السذج والعوام ويتصدرون بها المجالس، ويأكلون بها أموال الناس باطلاً.

ومنهم من إذا تحدث مع العوام ينكر ذلك، وإذا تحدث مع خواصّه زعم أن للدين ظاهراً وباطناً، وأن للشريعة أسراراً لا يعرفها إلا أفراد قليلون، ولهم في ذلك طرق متنوعة في الضلال، نسأل الله العافية.

❐ قوله: **(وَالنّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ [نوح: ١٧- ١٨]).

مسألة البعث من المسائل الجليلة العظيمة في دين الإسلام، بل هي أصل من أصول الإيمان والذي لايؤمن بالبعث بعد الموت لايؤمن بما يترتب عليه من الحساب والجزاء.

ولأهمية هذا الأصل وشناعة كفر من كذّب به تكرر التأكيد عليه في القرآن العظيم كثيراً، وأكّد الله تعالى بيان البعث بأنواع من الأدلة والتأكيدات:

- قال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ فبيّن صحة البعث بالقَسَم، وهذا تأكيد لوقوعه.
- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلّقَةٍ لِنُبَيّنَ لَكُمْ﴾ فبيّن أن بدأه لخلقنا من

تراب، ثم من نطفة دليل على أنه قادر على أن يبعثنا بعد الموت؛ فالذي خلقنا ولم نكن من قبل شيئا، قادر على أن يعيدنا إلى الحياة الدنيا بعد موتنا، فهذا استدلال بالبدء على إمكان الإعادة، وهو دليل عظيم القدر تكرر تأكيده في القرآن كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

• وقال تعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ فبين لنا مثالا مما نراه بأعيننا، وهو إحياء الأرض بالماء والنبات بعد موتها، فالذي أحياها قادر على أن يحيي الموتى، وهذا استدلال بالنظير؛ فالذي يقدر على هذا الأمر يقدر على نظيره.

• وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا استدلالٌ بالأولى، فإنّ من قدر على خلق الأكبر والأشد قادر على خلق ما هو دونه، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

• وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا استدلال بالقدرة المطلقة التي يعجزها شيء.

• وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ فاستدل هنا بدليل الحكمة والغاية، فإن الله لم يخلق هذا الخلق العظيم عبثا، وإنما خلقه لحكمة عظيمة، فالعاقل يسأل نفسه لم خلق؟ ولماذا خلق الله هذه لمخلوقات؟

فانظر كيف نوّع الله تعالى هذه الأدلة في كتابه الكريم، تأكيداً لوقوع البعث، وأنه حق لا ريب فيه.

وهذه الأدلة مجموعة في قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾

فتضمنت هذه الآيات، ذكر أنواع من الأدلة على البعث: فذكر دليل البدء، ودليل النظير، ودليل الأولى، ودليل القدرة المطلقة، ودليل الحكمة والتنزيه عن العبث، فهذه أدلة ظاهرة من تأملها أيقن يقينا تاما بالبعث.

والإيمان بالبعث يستلزم الإيمان بما يكون بعده من الحساب والجزاء.

❐ قوله: **(وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ.**

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]).

الإيمان بالحساب والجزاء أصل مهم من أصول الإيمان، وهو من الإيمان بالغيب.

والحساب والجزاء من أعظم ما يكون يوم القيامة بل لعظم ذلك سمي يوم القيامة بيوم الحساب كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾

وسمي بيوم الدّين أي الحساب والجزاء الذي يدان فيه الناس بأعمالهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

وتوعّد الله تعالى من أنكر البعث والحساب بالنار فقال تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

سؤالهم: (أيان يوم الدين) سؤال تعجب وإنكار وتعجيز واستبعاد لوقوعه حتى إنهم من فرط تكذيبهم وإنكارهم يستعجلونه فيقولون للمؤمنين ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾

فبكّتهم الله بهذه الآيات، وتوعّدهم على تكذيبهم وغفلتهم عن يوم الحساب الوعيدَ الشديد والعذاب الأليم.

والإيمان بالحساب والجزاء له آثاره على المؤمن في عباداته وسلوكه فإنّ من يعلم أن ما يعمله من خير أو شر سيحاسب عليه ويجزى به فإنه حري به أن يجتهد في اكتساب الأعمال الصالحة رجاء انتفاعه بها يوم الحساب والجزاء، ويجتنب السيئات مخافة عقوبتها يوم الحساب والجزاء.

ويحمله ذلك على:

- إحسان معاملته للناس ابتغاء ثواب الله عز وجل.
- واجتناب الظلم والعداون مخافة أن يجازى على ظلمه لهم فيقتصوا منه يوم القيامة بما يُعطون من حسناته أو يُلقى إليه من سيئاتهم.

وبهذا يتبيّن أن العبد لا يعاقب إلا بأحد سببين:

السبب الأول: تقصيره في حق الله عز وجل، بارتكابه بعض المحرمات، أو تركه بعض الواجبات؛ فيعذب على ذلك ما لم يعمل ما يرفع عنه العذاب من توبة صادقة أو حسنات ماحيةٍ للسيئات أو يدركه سببٌ يرفع الله به عنه العذاب.

السبب الآخر: تقصيره في حقوق الناس؛ إما بمنعهم ما يستحقون من الحقوق الواجبة لهم عليه، أو الاعتداء عليهم بقول أو فعل، وكلاهما ظلم؛ فإن الظلم يشمل منع المستحق حقَّه، والعدوان على المعصوم.

فمنْ أدّى حقّ الله عزّ وجلّ وحقّ عباده فإنه لا يُعاقب أبداً؛ لأن العقوبة لا تكون إلا على ذنب؛ والذنب إما أن يكون في حق الله عز وجل، وإما أن يكون في حق عباده.

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما ينجّي المؤمن من العذاب بوصية جامعة فقال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». رواه أحمد والترمذي وغيرهما من حديث معاذ بن جبل وحديث أبي ذر رضي الله عنهما.

وباب الإيمان بالحساب والجزاء له تفاصيل ذكرها الأئمة في كتب الاعتقاد وذكرها المفسرون وشراح الأحاديث، وفيها مسائل جليلة ينبغي للعبد أن يتأملها ويعتني بها، وقد ذكر بعض أهل العلم أن علم الجزاء ثلث العلم، كما قال ابن القيم رحمه الله:

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان

علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان

فجعل **العلوم ثلاثة**: علم العقيدة وعلم الشريعة وعلم الجزاء.

ولو أنه قال: (وجزاؤه بالعدل والإحسان) لكان أجود، ليعم الجزاء الدنيوي والأخروي، وليبين أن جزاء الله تعالى لا ظلم فيه بل هو مبني على العدل والإحسان.

والمقصود أن علم الجزاء من العلوم الجليلة النافعة لأنه العلم الذي يَعرف به العبدُ ثوابَ حسناته وعقاب سيئاته، وسُبُلَ مضاعفة الحسنات والوقاية من السيئات وعقوباتها.

وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك رسالة جليلة نافعة طبعت باسم (الحسنة والسيئة).

وله رسالة في (مكفِّرات الذنوب).

ومقصود هذا الفصل من هذا الدرس هو بيان وجوب الإيمان بالحساب والجزاء، وأنَّ من أنكره فهو كافرٌ كفراً أكبر بإجماع العلماء.

وأن المؤمن يجب عليه أن يجتنب ما يعاقب عليه يوم الحساب.

وسأذكر لكم خلاصات نافعة لأهم المسائل في هذا الباب تدل الطالب اللبيب على ما وارءها، وتكون دراسته لما بعدها في كتب الاعتقاد زيادة تفصيل وبيان على أصول قد عرفها وتبيَّنها.

- من ذلك أن الله تعالى وصفَ نفسه بأنه سريع الحساب وأنه أسرع الحاسبين كما في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾

قال البغوي: (﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أي: إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد).

قال ابن تيمية: (قال رجل لابن عباس رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في ساعة واحدة؟ قال: كما يرزقهم في ساعة واحدة).

- حساب الله تعالى مبني على العدل والإحسان ليس فيه ظلم على أحد من العباد مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

- بيّن الله تعالى قواعد الحساب في قوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾

وقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

• **الحساب يوم القيامة على نوعين:** حساب عسير، وحساب يسير

➢ فأما **الحساب اليسير** فهو لأهل الإيمان، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حوسب يوم القيامة عُذِّب».

قالت: فقلت: (أليس قال الله عز و جل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟).

قال: «ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب».

• العباد غير معصومين من السيئات حتى المحسنين منهم تكون لهم سيئات لكن يتجاوز الله عنها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾

• إن من اجتنب الكبائر كُفِّرَت عنه سيئاته فضلاً من الله ورحمة، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾، ولذلك فإن من اجتنب الكبائر فهو ناجٍ بإذن الله من العذاب لأن سيئاته تُكفَّر عنه.

• أما الذي لا يجتنب الكبائر فإنه لا يأمن العذاب على ما اقترف من الكبائر والصغائر.

كل ما يعمله العبد من السيئات فإنه يجزى به كما قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾

وهذا الجزاء إما أن يعاقب به العبد المسيء في الدنيا أو في الآخرة، أو يعمل العبد ما يمحو عنه السيئات من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، أو يناله سببٌ يرفع الله به عنه عقوبة السيئات من دعوة مسلم أو شفاعة شافع أو رحمة أرحم الراحمين.

• امتدح الله عباده المؤمنين بأنهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ وهذا الخوف يحملهم على التقوى بعمل الصالحات واجتناب السيئات.

وسوء الحساب هو أن يناقش العبد بسيئاته ثم يجازى عليها ؛ فإنه لا طاقة لأحد بعذاب الله.

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾، يقول: ويحذرون مناقشة الله إياهم في الحساب، ثم لا يصفح لهم عن ذنب، فهم لرهبتهم ذلك جادُّون في طاعته، محافظون على حدوده).

وليس معنى سوء الحساب أن الله يظلمهم، تعالى الله عن ذلك، بل إن الله يوفي كل إنسان عمله لا ينقص منه شيء.

بل سماه الله تعالى الجزاء الأوفى الذي لا أوفى منه، فلا يغادر الله فيه حسنة وإن كانت مثقال ذرة، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾

وكما قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم من حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا.

• دلت النصوص على أن **الأمة على ثلاثة أصناف في الحساب:**

الصنف الأول: من يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

الصنف الثاني: من يحاسب حساباً يسيراً، فينظر في كتابه ويكلمه ربه ويقرره بذنوبه ثم يعفو عنه.

وهذا المقام ينبغي للعبد أن يتزيّن له بما يستطيع من الأعمال الصالحة، ويتجنب ما يشينه ويسوؤه من الأعمال السيئة، فإنه مقام حقّ، يود العبد فيه أنه لم يعمل سوءاً قط.

كما في الصحيحين من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربُّه عزّ وجلّ ليس بينه وبينه تُرجمان؛ فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

قال الفضيل بن عياض: (واسوأتاه منك وإن عفوت).

الصنف الثالث: الذين يُناقَشون الحساب، ومناقشة الحساب في نفسها عذاب، ثم ما يكون بعدها من العقوبة على السيئات عذاب أيضاً، والذين يؤمر بهم إلى العذاب هم الذين ظلموا أنفسهم من أهل الكبائر؛ ومنهم من تدركه رحمة أرحم الراحمين وشفاعة الشافعين فينجو ويسلم ومنهم من يُكَرْدَسُ في النار فيعذب فيها ما شاء الله أن يعذب ثم يَخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث موسى بن عقبة عن علي بن عبد الله الأزدي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عز وجل ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ فأما الذين سبقوا بالخيرات فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ - إلى قوله- ﴿لغوب﴾».

وهذا الحديث قد روي من طرق عن أبي الدرداء هذا أجودها، وقيل: فيه انقطاع، وله شواهد، وهو موافق لنصوص الكتاب والسنة والله تعالى أعلم.

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يحاسب الله تعالى الخلقَ، ويخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه؛ كما وُصِفَ ذلك في الكتاب والسنة.

وأما الكفار؛ فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعدُّ أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها ويقررون بها) ا.هـ.

• الحساب العسير الذي لا تيسير بعده إنما هو للكافرين والمنافقين كما دل عليه مفهوم آيات الانشقاق، مع قوله تعالى: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾، وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ وقوله: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)﴾.

• جزاء الله تعالى للمؤمنين بالنعيم إحسان منه وفضل لأنهم لا يستحقون الثواب استحقاقاً على الله؛ فهم عبيده، وقد خلقهم لطاعته لا يستوجبون عليه شيئاً، وأعمالهم في طاعة الله مهما بلغت لا توازي شكر نعمه عليهم ولا تقاربها.

لكنَّ الله تعالى وعدهم وعداً حسناً أن يثيبهم على ما يعملون من الحسنات، والله تعالى لا يخلف الميعاد.

فيكون دخول المؤمنين للجنة إنما هو برحمة الله عز وجل وفضله وإحسانه ليس عن استحقاق في الأصل عليه.

وجزاء الله تعالى للكفار والظالمين عدل منه جل وعلا لم يظلمهم فيه شيئاً.

حتى إن الكفار أنفسهم يعلمون أنهم مستحقون للعذاب بسبب ما كانوا يعملون من السيئات وما اقترفوه من الكفر بالله جل وعلا، حتى إنهم ليمقتون أنفسهم مقتاً شديداً على ما فرطوا في جنب الله.

والمقصود أن جزاء الله تعالى دائر بين العدل والإحسان لا ظلم فيه بوجه من الوجوه.

وقد بيّن الله تعالى الآيات والعظات وأرسل الرسل لينذروا هذا اليوم فمن استجاب وأناب تذكَّر وتبصّر وسلك طريق النجاة فأفلح ونجا، ومن أعرض ونأى بجانبه وكفر بالله من بعد ما دعي إلى الإيمان فهو مستحق للعذاب الأليم والمقت الكبير

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)﴾

❑ قوله: **(وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].).

المكذب بالبعث كافر، وقد **استدل على كفره بأمرين:**

الأمر الأول: لأنه مكذب لخبر الله عز وجل وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم.

الأمر الثاني: أن الله تعالى وصف القائلين بهذا بالقول بأنهم كفار فقال: ﴿زَعَمَ الذِينَ كَفَرُوا﴾.

وهذا الاستدلال مبني على قاعدة من قواعد التفسير، وهي أنه إذا حُكِي في القرآن قولٌ أو فعلٌ عن قوم عُبِّر عنهم بوصف من الأوصاف فقولهم وفعلهم محكوم عليه بهذا الوصف.

فإذا قيل: قال الكافرون؛ فالقول المحكي عنهم كفر، فمن يقول به فهو كافر.

مثاله قوله تعالى: ﴿وقالَ الكَافِرونَ هَذا سَاحِرٌ كَذَّاب﴾

فمن زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم ساحر أو كذاب فهو كافر.

وقوله: ﴿إنَّ الذين كَفروا يُنفِقُون أمْوالَهُم لِيَصُدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ﴾
فمن حارب دين الله عز وجل بماله فهو كافر، إذا كان قصد الصدّ عن توحيد الله عز وجل ومحاربة الدين وظهور الكفر والشرك.

وأما من قصد الصدّ عن بعض الطاعات وظهور بعض مظاهر الفسق دون أن يقصد الصد عن توحيد الله عز وجل وظهور الشرك فهو على خطر عظيم ولا يجزم بكفره.
ومنه قوله تعالى: ﴿ومَن يَدع مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لهُ بِهِ فإنما حِسَابهُ عِند ربّه إنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرون﴾ فدعاء غير الله عز وجل هو من فعل الكفار الذين حكم الله تعالى عليهم بأنهم لا يفلحون.
وقوله: ﴿وقالَ الذين كفروا إن هذا إلا إفْك افْتَرَاهُ وأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْم آخَرُون فقد جاؤوا ظُلْماً وزُوراً﴾ فمن قال بأن الرسول صلى الله عليه وسلم افترى القرآن على ربه فهو كافر.
ومنه قوله: ﴿وقال الظالمون إنْ تَتَّبِعُون إلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ فمن زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم مسحور في دعوته يدعو إلى ما لا يعقله وإنما تتلبس به الشياطين وتلقي إليه ما يقول ويدعو إليه فهو ظالمٌ بهذا القول، بخلاف ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه سُحر سحراً لم يؤثر على تبليغ دعوته.
وهذا الظلم هو من الظلم الأكبر المخرج عن الملة.
وقوله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهم بغَيْرِ عِلْم﴾ فالذي يتبع هواه بغير علم فهو ظالم.
ومنه هذا المثال: ﴿زَعَمَ الّذِينَ كَفَرُوا أنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ فمن زعم أنه لن يبعث فهو كافر؛ لأنه قال بالمقالة التي وصف الله القائلين بها بأنهم كفار.

وهذه القاعدة صحيحة في الأصل ولها استثناءات.
والاستدلال الأول أصح وأقوى دلالة.
وقد أجمع أهل العلم على كفر من كذب بالبعث.

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.